سيقول لمن يبدى الفضول والغلاسة إنه مولود سيئ الخط، ماتت أمه التى تمت إليه بصلة دم ورحم، فسعى لكفالة اليتيم، هكذا صار بمنزلة ابنهما.

بشكل ما عرف فريح أصله الغامض، أمور كهذه لا تخفى، وفى عالم الأطفال قدر من القسوة، تمامًا كما يحتوى على البراءة وبواعث الدهشة.

شب فريح وحيدًا، غير راغب فى الخلطة، ولأنه حلو التقاطيع، أبيض البشرة، دقيق المشافر، خشى عليه والداه، ألمحا له ونصحاه، خاصة من هى بمنزلة أمه، لم تمل تكرار نصائحها: ألا يخلع هدومه أمام أحد، ألا يلعب نطة الإنجليز، ألا يسمح لأحد بلمس مؤخرته، لكن.. المحذور وقع فى آخر موضع يمكن تصور ذلك فيه.

عند عودته من المدرسة ذلك العصر دخل إلى المسجد، ربما ليؤدى الصلاة، ليستريح، لم يفصل لأحد فيما بعد، كان خاليا إلا من الخادم الأخرس نزيل القرية منذ سنوات، لا يعرف أحد فصله من أصله، أقدم بهمة على تنظيف الميضة ونزح مجرور دورات المياه، نفض الغبار عن الحصر، ومقام سيدى الأربعين الذى يتبارك به الناس وله يوم معلوم يحتفلون فيه بذكرى مولده كل سنة، كما تولى غسل قلل الماء وملأها يوميًا ورصها أمام النافذة التى يطل منها العابرون على الضريح، أشار إلى مدخل المئذنة الضيق، إلى أعلى، إلى فوق، فوق خالص، تقدم الصبى المبهور وعندما خرجا إلى الشرفة الدائرية زنقة فى المساحة الضيقة المطلة على البلدة كلها، لكن من يخطر له التطلع إلى أعلى واستنتاج ما يجرى، خاصة أنه ما من صوت صدر ولا صرخة، أحكم تكميم الفم الصغير رغم العض والخدش فى البداية قبل أن تهمد مقاومة الجسد البض، الواهن!